كنا خمسة ...

قصة بقلم الدكتور فاروق بيضون

وقف عصام حائرا أمام « كيوسك » الصحف الاجنبية وقد ملأت نوافذه الزجاجية صور الفتيات العاريات في أوضاع مثيرة ، وأسماء الصحف والمجلات في مختلف اللغات ..

فجأة انصبت نظراته على عنوان كتب بالبنط العريض الاسود باللغة الالمانية :

« الاسرائيليون يقتلون عربية في غزة »

« المتظاهرات لا يأبهن لقرار منع التجول ولا للرصاص » .

والتهم الاسطر القليلة بكل حواسه :

« قام اليوم عدد كبير من النساء العربيات في غزة بتظاهرة ... ولقد حاولت المتظاهرات الاقتراب من الاسلاك الشائكة المحيطة بالمعتقلين ، ولم يأبهن لتحذير الجنود الاسرائيليين ... »

وأعاد القراءة : مرة وثانية وثالثة :

« ... الذين أطلقوا النار على النساء ، فقتلت امرأة في الحال وجرح عشر غيرها ...

« ولقد صرح ناطق عسكري اسرائيلي ... » .

وطوى الجريدة .

كانت كوبنهاغن تضحك تحت أشعة الشمس الفضية .. كل شيء فيها يضحك : الاعلام الملونة التي ترفرف أمام قصر البلدية . القصر وقد كلل هامته الثلج فزاده جمالا ووقارا . تماثيل الفيكنغ الثلاثة وقد نفخوا بقوة في الابواق وفي كل اتجاه ، في حين نبضت الحياة في تقاسيم وجوههم البرونزية تحت القطن الابيض المندوف .

القاطرات الكهربائية الصفراء وهي حبلى بما تحمله من أفواج الناس ، وقد قدموا من أطراف المدينة ليلتقوا في قلبها .. المقاهي والمطاعم تضج بالحضور .. الشوارع مزدحمة بالشبان والشابات وقد وضعوا على رؤوسهم القبعات الورقية الملونة ، وعلى وجوههم الانوف الكرتونية الضخمة ، كالمهرجين في السيركات ، وتسلحوا بأبواق زاهية الالوان ، يضعونها من حين الى حين على أفواههم مطلقين أصواتا رفيعة تارة وكثيفة تارة أخرى ، وقد صاحبها الهرج والمرج ، الضحك والصراخ ، احتفالا برحيل عام سيمر بعد ساعات معدودات وبمقدم عام جديد . ومن بعيد ترددت أصداء المفرقعات النارية وقد ارتفعت أصواتها في الجو ، باعثة رجفة في القلوب ...

« ... كنا خمسة . خمسة من الخليل : أبو غسان و ... »

وأنصت .

« ... وحدث الاشتباك بيننا وبين دورية للعدو . في ... »

لك الله يا رجل ! هل نسيته ؟ أو نسيته وسط ضحك كوبنهاغن وعبثها ؟ ألم تلتق به قبل حين ، وكأنك على موعد معه ... على موعد مع نفسك القاتمة السوداء ؟ أولم يخبرك عن معركة .. عن ..

وأنصت .

« ... كنا خمسة ، خمسة من الخليل !..

« .. ثم شعرت بألم حاد في ساقي . فنظرت . ورأيت شلالا من الدم ينزف منها .. ثم .. ثم غبت عن الوعي .. »

« أبو غسان وسعد و ... »

وجهه الصارم وسط الوجوه الضاحكة حولك ! أونسيته ؟ الوجوه الباكية . القلوب الدامية . الرؤوس المداسة تحت الاقدام في الوحل . في الدم !

أنسيتها ؟!

ـ يله بنا يا شباب ! دعونا نعود الى الفندق !

قال حمد بلهجة حازمة وكأنه ضاق ذرعا بالوقوف أمام ذلك المكان بعد تلك السفرة الطويلة .

ودخلوا السيارة : حمد الاردني ، واسمه الحقيقي سامي ، زياد السوري وشقيقه حسان ، وهو .

ـ دعونا نتمتع بهذه الايام القليلة في كوبنهاغن يا شباب ! كفانا هموما !

ودار محرك السيارة .

« ... كنا خمسة من الخليل » . وأمسكت الغصة بحلقه . فصمت . سالت دمعة على خده .. كنقطة الماء تلك وقد تدحرجت على زجاج السيارة .

« أبو غسان لم يصدق يوما الاكاذيب ! لا السجون أقنعته ، ولا الوعود » .

ودخل عصام مع حمد الى غرفة رقم (٢٧) في الطابق الثاني من فندق « البوتانيك » المشرف على النهر .

ألقى بنظرة اليه من الدفء : من وراء الزجاج وقد التصق جبينه عليه ..

« ... واستيقظت على خرير المياه .

« كان اثنان من الرفاق لا أعرفهما يحملاني من الجانبين ، وقد ربطا ساقي بوشاح عقداه حول خشبة : عقدة قوية ، أوقفت النزيف . ثم خضنا في مياه نهر الاردن ، ليلا » .

ـ ماذا قرأت أيضا في الصحيفة ؟

سأل حمد وهو منهمك في ترتيب ثيابه في الخزانة . ثم تابع وكأنه لا ينتظر جوابا :

ـ أولاد الكلب ! حتى النساء ! انهم لا يوفرون أحدا ! حتى على النساء يطلقون النار !

ثم بصوت عال غاضب :

ـ كيف يريدون أن نعيش معهم .. مع هؤلاء المجرمين ؟ أبدا ! أبدا !

ـ اذا كنتم بحاجة الى أي شيء فما عليكم الا أن تقرعوا الجرس.

وأشار « الجرسون » بيده الى الزر ، ثم تابع باشا :

ـ أهلا وسهلا بكم في عاصمة الدانمرك ، باريس الشمال ! الفطور في المطعم في الطابق الارضي حتى الساعة العاشرة والنصف صباحا .

وأغلق الباب .

يا حمد ! يا حمد ! لقد جعلت من غرفتك في هامبورغ متحفا لفلسطين ! علقت على الجدار صورا لفلسطين . للضفة الغربية في فلسطين . لما تبقى من فلسطين . وما تبقى منها قد ذهب !

« ـ هذه رام الله ! لله ما أحلاك يا رام الله !

وهذه هي بيت لحم ! وهذه هي نابلس .. نابلس . أنظر الى بيارات البرتقال .. وهناك الى حقل الزيتون . أنظر .. وهذه هي

القدس ! أنك تعرف القدس حتما ! أليس كذلك ؟ كلا ، انك لا تعرفها ؟ مستحيل !! عربي لا يعرف القدس ! عجيب ! انك قد زرت برلين ولندن وباريس ولم تزر القدس !! وعلقت خارطة فلسطين فوق سريرك، وكتبت : فلسطين عربية و ... » .

ـ المجرمون ! قال حمد غاضبا :

المجرمون . والله يا عصام ، كلما أسمع بمثل هذه الاخبار أشعر بالنار تأكلني أكلا ، وبالدم يغلي في عروقي . وما يزيد في قهري هو ما تكتبه صحف هذه البلاد . أولاد الكلب الالمان : لو ان العكس كان صحيحا ..

ورمى بجريدة « دي فلت » الهامبورغية في زاوية الغرفة ، وتابع:

ـ لو ان جنديا عربيا أطلق النار على امرأة يهودية ، لكنت وجدت مقالات طويلة عن الارهاب العربي ، عن الوحشية العربية ، عن الدموية العربية .. الخ .. وأما الآن فلقد بحثت في كل زاوية منها...

وأشار الى الصحيفة الملقاة أرضا :

ـ عن تعليق ، عن كلمة حق ، عن شجب ، عن احتجاج ، عن اعتذار أو لوم .. ولكن عبثا !!

ـ كن سعيدا عندما يذكرون الخبر فقط !

أجاب عصام وقد ألقى بنفسه على السرير تعبا من عناء الرحلة .

ـ بل كن سعيدا ان لم يحوروا الخبر ولم يدعوا ان ارهابيين عربا قد أطلقوا النار على نساء عربيات متظاهرات ..

قال زياد وقد دخل الغرفة دون أن يشعر به أحد . ثم وبعد لحظة :

ـ شو يا شباب ؟ ألم ننته ؟

ـ كلا ! لم ننته ولن ننتهي !

أجابه حمد غاضبا . ثم تابع :

ـ أولاد الكلب !..

وخرج الاربعة من الفندق . لفح وجوههم هواء قارس . والنهر كان قد تجمد من شدة البرد وظهر كالمرآة .

« لقد تجمدت أطرافنا في الليل . لله ما أطول تلك الساعات التي قضيناها في الحفرة ! التصقنا بالارض وقد تعالت ضربات قلبينا بشكل مخيف . وشعرنا بأنفسنا وكأننا عراة .. بدون سلاح !

« كنا خمسة ، خمسة من الخليل ، ومعنا رشاشان فقط . وسقط منا ثلاثة خلال المعركة ومعهما الرشاشان . وأنا وخالد كنا في الحفرة. وكلانا جريح .. وكلانا ينزف دما » .

ـ هل أخذتم عنوان المرقص من ادارة الفندق ؟

سأل حسان وهو يثبت قبعته الروسية الشكل فوق رأسه ، والبخار يتصاعد من فمه .

ـ طبعا ! طبعا !

أجابه حمد ، ثم التفت الى عصام موجها اليه كلماته في هدوء :

ـ انني أعلم بم تفكر . ولك الحق في ذلك . انا مثلك . ولكن.. دعنا الآن من هذه الافكار .. انها لا تجدي شيئا .. صدقني !

ثم وضع يده على كتف عصام وربت بلطف :

ـ انني من الاشخاص الذين يعيشون حسب قول الشاعر :

« اليوم خمر وغدا أمر ! »

فدعنا نتمتع اليوم لكي نعمل غدا !

ثم أشار بيده ، وقد اختبأت وراء كف جلدي كثيف ، الى امام :

ـ أنظر الى كوبنهاغن ! ما أجملها !

كانت المدينة ترفل في أجمل حللها : فالثلج يغطي كل شيء ، الاشجار والبيوت والاعمدة والشوارع . ويضفي عليها مسحة من السحر هو أقرب الى الخيال منه الى الواقع . فالبياض في كل مكان والثلج كالقطن المندوف الابيض تحت الاقدام ، كالوسائد الوثيرة . كان الناس يسيرون زرافات ووحدانا في الشوارع ، وهم يتحدثون بمختلف اللغات ، وكأن كوبنهاغن قد تحولت الى عاصمة العالم .

ألم يخبرهم صاحب الفندق بأن المدينة تعج بالسياح ، أتوا من كل مكان للاحتفال بعيد رأس السنة الجديدة ؟

ـ ... انها ستكون ليلة عامرة ! أتمنى لكم أن تتمتعوا بها كل المتعة ! عام سعيد !..

ـ وعندما نصل الى البحر أمامنا ..

قال حمد وقد أشار بيده :

ـ نعكف الى اليسار ونصل الى المكان الرئيسي ، حيث ...

« ... ووصلنا الى البحر ، واتجهنا الى اليسار ، في اتجاه المستعمرة . كانت أضواؤها تظهر لنا من بعيد ، وتقترب منا كلما أمعنا في الزحف .. وأبو غسان يقودنا . ثم وصلنا اليها . وزرعنا الالغام ، تماما حسب الخطة .. وعدنا باتجاه البحر . العملية نجحت ! ولكن في طريق العودة اصطدمنا فجأة بدورية كبيرة للعدو .. » .

كان المرقص مزدحما بالضيوف ، وقد وقف قسم كبير منهم بين الطاولات وفي الزوايا نظرا لانعدام المقاعد الشاغرة . كانت الزينة تعشش في كل مكان واللمبات الكهربائية الملونة ترسل ضوءها الخافت وسط هذا الجو الحافل بأنغام الموسيقى والغناء ..

« ... وأرهفت سمعي ..

بعد طلقات الرصاص المتواصل وقف قلبي عن النبض . لم أعد أسمع الا أنفاسي المتلاحقة .. لقد نسيت الالم الذي يهصرني هصرا . تشبثت عيناي بالامتار القليلة امامي حيث استحكم الرفاق الثلاثة .

ماذا قالوا لنا ؟ ماذا قال لنا بعد أن حملنا سعد الى تلك الحفرة الآمنة ؟

« ـ ابقيا هنا .. لا تتحركا حتى ننهي على دورية العدو . ولسوف نعود .. » .

ـ اتبعوني ..

قال لهم الجرسون .

ان طاولتكم ما زالت محجوزة لكم .. هناك في الطرف الثاني من المرقص .

لم يكن سهلا اللحاق به وسط الجموع الهادرة ، وسحب الدخان ، والاوراق الملونة المتطايرة في كل مكان ، وقرقعات الطلقات في الزوايا..

« بعد طلقات الرصاص خيم على المكان سكون رهيب . ومن بعيد تعالى نقيق الضفادع . فقلت في نفسي : لا بد ان هناك ساقية ما أو مستنقعا بالقرب منا .. ولكن أين هم ؟ لماذا لا يتحركون ؟ لماذا ؟..

ثم سمعت انفجارا . فطمرت رأسي في الارض . أصبحت قطعة منها . ثم انفجارا ثانيا . ثم .. ثم سمعت خالدا بجانبي يقول وقد أطل الهول والغضب من عينيه :

ـ انهم يرمونهم بالقنابل اليدوية .. لمجرد التأكد ...

« ثم ... »

وأجفل عصام على لكز في خاصرته ، وصوت زياد في أذنيه :

ـ أين أنت يا رجل ؟ هل أنت تعب من السفر الى هذا الحد ؟ ألم تر الفتاة التي أمامنا .. وراء الطاولة في الزاوية اليمنى .. أنظر !

ورمى زياد نظرة خلسة حيية الى المكان الذي أشار اليه ثم تفحص عصام وسأله :

ـ هل رأيتها ؟

ـ . . .

ـ يا رجل ! انها تحدق بنا منذ دخولنا المرقص . ولست أدري أتحدق بك أم بي أنا أم بكلينا ؟

وضحك بسرور وقد جال بعينيه في جوانب المكان الضاج بجموع الراقصين والراقصات وقد التصقوا بعضهم ببعض وتحركوا لضيق المكان ببطء وكأنهم كتلة واحدة تتمايل بصعوبة مع الالحان الراقصة . ثم اختلس نظرة سريعة الى الفتاة فوضع يده على فمه وكأنه يريد أن يفضي الى صاحبه بسر خطير وقال :

ـ انها ما تزال تحدق بك يا رجل ! لماذا لا تتحرك ؟

ـ رجاء . دعني وشأني !

أجابه عصام وقد أخذ ينفض غليونه على طرف المنفضة وهو تائه في تفكيره .

ماذا قال له الشاب الدانمركي ذو اللحيـــة الشقراء والغليون المشعل دوما ؟

« ـ Itis Almost Unbelievable ! Unbelievable

« انه أمر يكاد الا يصدق ! ألا يصدق ! »

ووضع غليونه في فمه وسحب منه نفسا طويلا ثم قذف بالدخـان من أنفه وتابع :

ـ والله يا عصام انني لم أعد أفهمك ! هل تقطع مئات الكيلومترات وتسافر تحت الامطار والثلج وتترك ألمانيا لتأتي الى كوبنهاغن لكي تجلس هنا وتحلم ؟ أنظر الى حسان : انه يصول ويجول ! وحمد ! أين حمد ؟ لقد اختفى حمد !! يا رجل استيقظ ! انها ليلة رأس السنة وهـي ليلة واحدة في العام !

ثم نهض واقفا وقـال ، وقد زرر سترته وتأكد من وضـع ربطة عنقه :

ـ انني سأتركك الآن ولسوف أجرب حظي ..

وابتعد عنه متواريا وراء الجموع الصاخبة .

« .. نحن معشر الاوروبيين نعاني مشكلة نفسية كبيرة ، تمنعنا من ادراك ما يجري حقيقة في فلسطين . فالى عشرين سنة خلت ، كان اليهود في أوروبا مضطهدين على أيدي النازيين اضطهادا شنيعا . أنتم تعلمون حتما التفاصيل الآن بحكم وجودكم في ألمانيا . ولكن هل بامكانكم أن تدركوا أن اليهود كانوا وما يزالون ضحايا .. ضحاياهم ! ومـن الصعب جدا أن يروا في ضحايا الامس جلادي اليوم ! ثم لا تنسـوا تأثير دعايتكم السيىء .. » .

ـ سكول !

ودوى الصوت في أذنيه . ونظر واذا بزياد أمامه وقد تابط ذراع الفتاة وفي يده الاخـرى أمسك بكأس الجعة وهو يدعوه الى شرب نخبـه :

ـ سكول !

ألقى زياد بنظرة سريعة على الفتاة ، ثم الى عصام بفخر واعجاب وقال له :

ـ ما رأيك بها ؟ ناعمة أليس كذلك ؟

وضمها الى صدره وكأنه يعرفها منذ زمن بعيد ، ثم تابع :

ـ لها رفيقة لطيفة جدا . أنظر اليها ! انها في الركن المقابل .. ما رأيك لو ...

وقطع حديثه فجأة وكأنه شعر بضيق الفتاة نظرا لتحدثه بلغـة لا تفهمها ، فأسرع الى ضمها مرة أخرى قائلا :

ـ سكول ! سكول !

كانت الاوركسترا تعـزف شتى الالحان بتواصل ، أو شبـه تواصل . تقطع العزف دقائق معدودات ، تستريح فيها ، تجفف عرقها ، تجرع من أقداح الجعة الموضـوعة أمامها ما تجرع ، تعود للعزف .. والهرج والمرج على أشدهما في المكان . ومن حين الى حين كان الباب الرئيسي يفتح لتدخل منه جماعة سكرى تبحث عبثا عن مكان للجلوس لمتابعة السهرة . واذا ما أبصر أحدهم بمكان شاغر زحف اليـه مـع صحبه ليتحوموا وراء طاولة صغيرة منصرفين الى لهوهم وعبثهـم وسكرهم .

فالليلة هي ليلة رأس السنة ! وكل شيء فيها مباح ..

كان ينفث دخان سيجارته بعصبية ظاهرة وهو يتحدث عن بلدتـه الخليل . وكأنه قد نسي انه الآن في كوبنهاغن ، في وسطها ، بعيـدا بعيدا مئات الاميال ، آلاف الاميال عن الخليل .. عن بلدته .. عـن فلسطين !

وأنصت : ذاك الصوت يلاحقه في كل مكان : أقوى من الضجيج . أقوى من الموسيقى الصاخبة . أقوى من العبث والمجون . وأنصت :

للمرة المئة تطن هذه الكلمات في أذنيه . ملحاحة لجوجة .. وكـل مرة تتردد بين صدغيه يشعر برجفة تسري في أوصاله .

« .. كنا خمسة ، أبو غسـان ، وقيس أبو الاولاد ، وسعـد ، وخالد وأنا ...

« أبو غسـان لم يؤمن يوما بالاذاعات ، ولا بالاكاذيـب ، ولا بالوعود ! قال لنا : حرمونا العمل عشرين عاما ! والآن علينا بالسلاح .

« وزحفنا ، ليـلا . وأبو غسان يقودنا .. كما في المـرات السابقات .. ثم وصلنا البحر .. » .

من كان يدري انهم سيلتقون به في قلب كوبنهاغن وسط المـرح والمسرات ، وكأنه قطعة من بلادهم ، تذكرهم بأعمق أعماق مأساتهم ؟!

وأنصتوا اليه في مطعم الاكسبريس . ونسوا طعامهم بعـد أن صدت أنفسهم عنه . وصديقه الدانمركي بجانبه صامت ، يصغي ويدخن غليونـه .

ـ وهل ستعود ؟ سألوه .

ـ بالطبع !

وودعهم . واستأذن منهـم صاحبه الدانمركي ، وهو مضيفـه والمشرف على علاجه ، بعد أن هز لهم أيديهم مرحبا . وضاعـا بين الجمـوع .

ونظر عصام حواليه وقد شعر بضيق متزايد . وبجفاف فـي حلقه .

نظر الى الحفل القائم حوله ، الـى جموع الراقصين والراقصات وقد أخذت بهم نشوة الرقص فتمايلوا على الجنبين بايقاع . وقـد تحومت الاذرع حول القامات الطرية والتصقت الشفاه بالشفاه ..

وخيل اليه انه لم يعد يرى بوضوح ، وان معالم المكان بـدأت تضمحل أمامه رويدا رويدا .. بل ها هو يرى بوضوح العيون.. عيون الراقصين والراقصات .. لا .. عيونهن : عيون بنات ونساء غزة وهـن يتحدين جنود العدو ، أسلاك العدو الشائكة ، رصاص العدو وقـد تعالى في الفضاء .

والعويل والصراخ قد ملأا الجو .. كلا ! الضحك والمـرح .. فالساعة قد بلغت الثانية عشرة ليلا .. كلا ! ظهرا ونساء غزة ثائـرات في الطريق يهتفن ، يصرخن ، يقعن أرضا مضرجات بدمائهن .. كـلا ! يقعن أرضا من الرقص العنيف والعبث المجنون .. فالساعة قد بلغت الثانية عشرة ليلا.. والعام قد انتهى « عام سعيد ! » « عام سعيد ! » سكول ! سكول ! عام سعيد !

ولكن ها هي الاصوات تزداد حدة ، والصراخ شدة .. وها هـي الاعين .. الاعين الجريئة ، الاعين الباكية ، الاعين الضاحكة : تنظـر اليـه !

كلا ! انه لم يعد يحتمل .. لا بد له من ...

وشق له طريقا بين الجموع ، بعد جهد . وقف في الهواء الطلق منهكا وقد استند على حائط بجانبه خشبة التهاوي . وأحـاط به جموع المحتفلين وقد شخصت أبصارهم الى السماء حيث الالعـاب النارية تنفجر ، تضيء ، تنطفىء .. تنفجر ، تضيء ، تنطفىء ..

« .. كنا خمسة من الخليل . خمسة من فلسطين . خمسـون مـن ... »

وازدادت الانفجارات حدة مرددة أصداءها في الجو .. وتعـالت الصرخات ولمعت السماء بالانوار : كالقصف ، كالرعد ..

وانطلق عصام وكأنه يريد أن يهرب من ظل يلاحقه ، من سـؤال ينفجر في أذنيه بعنف ، بقوة :

ـ « أتمنى لكم أطيب الاوقات في كوبنهاغن . ولكن .. »

« ولكن . ولكن ... »

وترددت هذه الكلمة في رأسه كالانفجارات : مدوية ، هازئة :

ـ « ولكن ماذا تريدون في كوبنهاغن ؟؟ » .

برلين — فاروق بيضون